حقوق المرأة في فلسفة فريديريك نيتشه.

أد عبد الحليم بلواهم

إنّ المرأة فلسفياً هي ورشة ممكنة وطرية للتفكير، لكن الجليل في الأمر هنا ليس مضمون التفكير، بل أساساً في المسالك والأسئلة التي يسترشد بها ذلك التفكير، والسبل الجديدة التي يقترحها في أفق بلورة منظور مغاير للمواضيع، بما يمنح لتناولها الطرافة التي تجعلها جديرة بالمدارسة. ومنه، فإنّ ما هو أهل للعمل عليه فلسفياً هو التفكير في الأسئلة التي نتوّجه بها إلى المرأة فلسفياً، أي كيف يمكن أن تكون المرأة شأناً للفلسفة؟ وما هي الأسئلة والسبل والمسالك التي يمكن من خلالها أن تصير المرأة موضوعاً للفلسفة؟ وهذا ما نقدم في محاولة الاقتراب من الإجابة من خلال وجهة نظر فريدة وطريفة هي موقف الفيلسوف الألماني "فريديريك نيتشه "

فيلسوف وشاعر ألماني. كان من أبرز الممهّدين لعلم النفس وكان عالم لغويات متميزاً. كتب نصوصاً وكتباً نقدية حول المبادئ الأخلاقية والنفعية والفلسفة المعاصرة المادية منها والمثالية الألمانية. وكتب عن الرومانسية الألمانية والحداثة أيضاً. عموماً بلغة ألمانية بارعة. يُعدّ من بين الفلاسفة الأكثر شيوعاً وتداولاً بين القراء. كثيراً ما تُفهم أعماله خطأً على أنها حامل أساسي لأفكار الرومانسية الفلسفية والعدمية ومعاداة السامية وحتى النازية، لكنه يرفض هذه المقولات بشدة ويقول بأنه ضد هذه الاتجاهات كلها. يُعدّ نيتشه إلهام للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة في مجال الفلسفة والأدب في أغلب الأحيان. روج لأفكار توهم كثيرون أنها مع التيار اللاعقلاني والعدمية، استخدمت بعض آرائه فيما بعد من قبل أيديولوجيي الفاشية، وتبنَّت النازية أفكاره. رفض نيتشه الأفلاطونية والمسيحية الميتافيزيقيا بشكل عام ودعا إلى تبني قيم جديدة بعيداً عن الكانتية والهيغيلية والفكر الديني والنهلستية. سعى نيتشه إلى تبيان أخطار القيم السائدة عبر الكشف عن آليات عملها عبر التاريخ، كالأخلاق السائدة، والضمير. يعد نيتشه أول من درس الأخلاق دراسة تاريخية مفصلة. قدم نيتشه تصوراً مهماً عن تشكل الوعي والضمير، فضلاً عن إشكالية الموت. كان نيتشه رافضاً للتمييز العنصري ومعاداة السامية والأديان ولاسيما المسيحية لكنه رفض أيضاً المساواة بشكلها الاشتراكي أو الليبرالي بصورة عامة

تجاهل الفلاسفة ولفترة طويلة الاختلافات الجنسية، ولم يعتبروها موضوعًا للدراسة. وهكذا، عندما يشير نيتشه إلى التمييز بين المذكر والمؤنث، فإنه يفتتح طريقة للتفكير في العلاقات الإنسانية التي يمكن اعتبارها، إلى حد ما، مرتبطة بالجنس.[1]

صحيح أن بعض المفكرين في عصره دافعوا عن حركة تحرير المرأة. وهذا هو حال جون ستيوارت ميل، الذي كتب نصوصاً لصالح استقلال المرأة، وهي نصوص معروفة جيداً لدى نيتشه. ولكن على عكس ميل، يقود نيتشه معركة ضد حركة تحرير المرأة، والتي ستثبت أنها لا ترحم.[2]

تتضمن كتاباته وفرة من الملاحظات حول المرأة: بعضها عبارة عن كليشيهات، والبعض الآخر عبارة عن تحليلات معقدة وراقية للحالة الإنسانية من خلال منظور الجنس؛ ويذكر حالة المرأة في استطرادات متفرقة[3]، وكذلك في مقاطع جيدة المناقشة.

أهم مؤلفاته:

" هكذا تكلم زرادشت.(Thus Spoke Zarathustra) "

" -الإرادة إلى السلطة.(The Will to Power) "

" -جانبو.(Beyond Good and Evil) "

" -كائن يبحث عن معنى.(Man's Search for Meaning) "

" -الميل إلى المقامرة.(The Gay Science) "

كما كان لنيتشه العديد من المؤلفات الأخرى التي تتحدث عن الفلسفة والأخلاق والثقافة والتاريخ. كما قام بتأليف العديد من النصوص الشعرية والأدبية التي تعبر عن رؤيته الفلسفية وتفكيره العميق.

ولا تحتل تأملاته حول هذا الموضوع مكانا هامشيا في أعماله؛ لا يمكن اختزالها في التفضيلات الشخصية، ناهيك عن الأخطاء العرضية. على العكس من ذلك تماما، في كتابي الأخير "تناقضات نيتشه". أما بالنسبة للأنماط والصور والأشكال الأنثوية، فإنني أدافع عن فكرة أنها منقوشه بالكامل في مشروعه الفلسفي[4]

باستثناء نصوصه المبكرة، فإن اعتبارات نيتشه للمرأة موجودة في جميع أعماله. إن هذه الأفكار موجودة، على سبيل المثال، في العديد من الأمثال في كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته"، وفي سلسلة من الفقرات في الكتاب الثاني من كتاب "العلم المرح"، وفي العديد من الخطب في كتاب "هكذا تكلم زرادشت"، وفي مجموعة من الفقرات في كتاب "ما وراء الخير والشر"، وفي عدد من المقاطع في كتاب "شفق الأصنام". ونظراً لموضوع الدراسة الذي اخترته هنا، فسوف أركز انتباهي بشكل خاص على المقاطع في كتاب "ما وراء الخير والشر" حيث يهاجم نيتشه النساء اللواتي يطمحن إلى الاستقلال [5].

مبارزة مستحيلة

في الفقرة 238 من هذا الكتاب، يقول نيتشه أن هناك "أشد العداوة" بين الرجال والنساء. "إن سوء فهم المشكلة الأساسية المتمثلة في "الرجل والمرأة"، وإنكار العداء الأعمق والحاجة إلى التوتر الذي لا يمكن تخفيفه، والحلم ربما بالمساواة في الحقوق، والتعليم

المتساوي، والمساواة في الفرص، كلها أمور من شأنها أن تؤدي إلى عواقب وخيمة[6]

ومن خلال القيام بذلك، فإنه قد يشير بوضوح إلى أن الرجل والمرأة يقيمان علاقة متضاربة. في نظره، فإن تصور الوجود باعتباره مبارزة عادلة هو شرط متأصل في كل ما هو نبيل. ولكن منذ نصوصه الأولى،[7] يؤكد نيتشه أنه لا يمكن أن يكون هناك صراع عندما يحتقر المرء الخصم، وليس هناك سبب للصراع عندما يهيمن عليه. ومن هنا يتبين أن العلاقة بين الرجل والمرأة، بالنسبة للفيلسوف، لا يمكن تصورها باعتبارها مواجهة بين موقفين متعارضين. لأن الصراع يجب أن يكون دائمًا بين المتساوين.

فكيف يمكننا إذن أن نفهم "العداء الأشد قسوة والحاجة إلى التوتر الذي لا يمكن تخفيفه" بين الرجل والمرأة؟ كيف يمكننا أن ننظر إلى الطبيعة التنافسية لهذه العلاقة؟

"اعتبار المرأة من الممتلكات"

للوهلة الأولى، قد يفترض المرء أن نيتشه يشجع النساء على تحدي الرجال في المبارزات لأنه لا يريدهن أن يتصرفن مثل الرجال، ولكن أيضًا لا يخضعن لهم.[9] ومع ذلك، في الحديث عن كيفية النظر إلى النساء، يقول إن الرجل العميق، الخير، الصارم، والقوي "لن يكون قادرًا أبدًا على التفكير في النساء إلا بطريقة شرقية: يجب أن يتصور النساء كممتلكات، كخير يجب قفله، كشيء مقدر مسبقًا للخدمة ويجد تحقيقه هناك". وباختصار، فإن مثل هذا الرجل سوف ينظر إلى المرأة على أنها مقدرة لها أن تخضع. ولذلك لم يتردد نيتشه في إظهار معارضته لحركة تحرير المرأة التي كانت موجودة بالفعل في عصره.[10]

ولكن تجدر الإشارة إلى أن الفيلسوف لا يتطرق إلى المرأة في كتاباته. ويتوجه إلى الرجال، وخاصة الرجال الذين، مثله، يفكرون في النساء، ويشرح لهم كيف ينبغي أن يعاملوا.[11] إن المقطع المقتبس يستدعي اهتمامنا. من خلال النظر إلى المرأة "على الطريقة الشرقية"، يعطي نيتشه الأولوية "للعقل الهائل في آسيا" ويبتعد عن تاريخ الفلسفة الأوروبية. وعندما يخاطب نظراءه فإنه يمتدح "تفوق غريزة آسيا" وبالتالي يحارب الفلسفة الغربية التي اتخذت دائما الإنسان الأوروبي نموذجا لها. وعندما يتعلق الأمر بكيفية معاملة النساء، يلتزم نيتشه بتشجيع زملائه الرجال على التصرف بطريقة مماثلة لتلك التي يتصرف بها الرجل الآسيوي.[12]

من وجهة النظر النيتشوية، منذ الثورة الفرنسية، اعتبر المجتمع الأوروبي أن إخضاع الفرد للضروريات العامة أمر أخلاقي.[13] وهو منحط، إذ يعلن أن سعادته تتلخص في أن يصبح مفيداً للجميع، من خلال قمع طابعه الفريد وتحويل نفسه ببساطة إلى عضو في "الجماهير الاجتماعية". وهذا هو السبب الذي من أجله شجع ظهور حركات مثل حركة تحرير المرأة ـ التي يثور الفيلسوف ضدها.[14]

تحرر "منحط"

يعتقد نيتشه أن نفوذ المرأة في أوروبا قد تراجع مقابل زيادة حقوقها. بالنسبة له، ليس من قبيل الصدفة أن تخطئ النساء، اللاتي يرغبن في المساواة مع الرجال، في حساباتهن. في سعيهم للحصول على الحقوق، فإنهم يقللون من دائرة نفوذهم. فبينما تتعلق الحقوق بالمجتمع الذي تشكل بعد الثورة الفرنسية، فإن النفوذ يتعلق بما كان موجوداً قبل الثورة.[15]

يعتقد نيتشه أنه على عكس المنظمات الاجتماعية القائمة على فكرة التسلسل الهرمي، مثل تلك الموجودة في آسيا أو اليونان القديمة أو فرنسا خلال النظام القديم، كان المجتمع الأوروبي في عصره يتحرك بسرعة متزايدة نحو التوحيد القياسي. ثم يندد بالنزعة المساواتية في أوروبا الحديثة: "لم يسبق في أي وقت من الأوقات أن عومل الجنس الأضعف من قبل الرجال بنفس القدر من الاعتبار كما هو الحال في عصرنا - فهذه سمة محددة للميل والذوق الأساسي للديمقراطية".[16]

يعتقد نيتشه أنه يتحدث لصالح المرأة من خلال تحذيرها من أن التحرر الذي تريده يساهم في إضعاف خصائصها وخصوصياتها. وقد يقال إن النساء، في الواقع، عندما يطالبن بالمساواة في الحقوق منذ الثورة الفرنسية، يعتقدن أن المجتمع الصناعي لا يميز على أساس الجنس. لكنهم يخطئون حين يتصورون، بالاعتماد على فكرة عالمية مجردة، أن هذا المجتمع ينظر إلى جميع المواطنين كعمال ومستهلكين على نحو غير متمايز.[18]

وتلاحظ النساء بعد ذلك ـ كما أثبتت جينفييف فريس وميشيل بيرو ـ أنه استناداً إلى الفصل الصارم بين إنتاج السلع وإدارة المنزل، يتم الحفاظ على المجتمع الصناعي بفضل الأنشطة التي يسندها إلى النساء، بدءاً من المهام المنزلية، بدءاً من تربية الأطفال ورعايتهم، إلى الدعم المقدم للرجال. ولكنهم مقتنعون بأن "الحرية والمساواة والإخاء" تهم جميع البشر، ولذلك يطالبون بالمساواة في الحقوق. وهم مخطئون مرة أخرى عندما يفترضون أن الشعار الثوري ينطبق عليهم أيضاً. وهكذا تدرك النساء الطلاق بين الخطابات والممارسات: فالمبادئ الثورية المنصوص عليها في إعلان حقوق الإنسان والمواطن لا تتجاوز حدود الذكورة.[19]

من وجهة نظر نيتشه، أصبحت النساء، المتحمسات للثورة الفرنسية، أضعف. ومن هنا يتبين أن "هناك غباء في هذه الحركة" لتحرير المرأة. إن النساء اللواتي يرغبن في المساواة مع الرجال يكرسن أنفسهن للقراءة والكتابة وبالتالي يتخلين عن "التواضع اللطيف والماكر"[20]. إنهم يتحدون الصور المثالية ويقوضون الاعتقاد الذكوري في "الأنوثة الأبدية". إن رفضهم التصرف "كحيوان أليف رقيق للغاية، وفضولي، وممتع في كثير من الأحيان"[21] يثني الرجال عن التعامل معهم باهتمام ووضعهم تحت حمايتهم. وهم بذلك يهملون الأسلحة التي مكنتهم من تحقيق الكثير من الانتصارات. ولكن يجب التأكيد على أن الأسلحة تحديداً هي التي تُنسب عادةً إلى الضعفاء. ومن خلال الاستعانة بالكليشيهات المرتبطة بالأنثى، يسعى نيتشه إلى إدانة ما يعتبره في نظره استراتيجية للهيمنة من جانب المرأة. ومن خلال التأكيد على مكرهم وقدرتهم على الإغواء ورؤيتهم كأشخاص ممتازين في فن التلاعب، فإنه يجعل نفسه متواطئًا في الإهانة التي تعرضوا لها لقرون من الزمان.[22]

الأدلة التي جمعتها هنا تسمح لي بالاستنتاج أنه إذا كان نيتشه ينتقد النساء لأنهن يطالبن بالمساواة في الحقوق، فهو غير مستعد لمحاربة ما يدفعهن إلى المطالبة بها ولا ضد ما يمنعهن من الحصول عليها. وعلى العكس من ذلك، فإنه من خلال الترويج لصورة تقليدية للمرأة، فإنه لا يتردد في قيادة معركة لا هوادة فيها ضد حركة تحرير المرأة.[23]

من الممكن تماماً أن يكون نيتشه، في انتقاده للفلسفة العقائدية، ينوي في الوقت نفسه تقديم مفهوم آخر للحقيقة. من خلال تشبيه الحقيقة بالمرأة، فإنه يحارب الحقيقة العقائدية التي يسعى إليها الفلاسفة

العقائديون، وفي الوقت نفسه يحتفل بالمرأة التي لا توافق على تسليم نفسها لهم. وفي مقدمة كتابه "العلم المرح"، كتب:

إشعار إلى الفلاسفة. إن التواضع الذي اختبأت به الطبيعة خلف ألغازها وشكوكها الغامضة ينبغي أن يحظى بتقدير أكبر. ربما تكون الحقيقة هي أن المرأة لديها أسباب وجيهة لعدم إظهار أسبابها [25]

إن حقيقة أن نيتشه يفكر في تسمية هذا المفهوم الجديد للحقيقة بـ"باوبو" تطالب باهتمامنا. ومن المعروف أنه في التقليد الأوربي، يرتبط باوبو باختطاف بيرسيفوني على يد هاديس. في بحثها المتجول عن ابنتها، تم الترحيب بديميتر في إليوسيس. لا تستطيع أن تهدأ، فهي ترفض الطعام المقدم لها. باستخدام النكات والكلمات البذيئة، يحاول باوبو إقناعها بكسر حزنها الأمومي؛ عندما تفشل في القيام بذلك، يقوم باوبو بلف ملابسه ويكشف عن قضيبه. وقد أسعدت هذه البادرة غير المتوقعة ديميتر، التي وافقت في النهاية على إطعام نفسها.[26]

المشكلة التي تطرح نفسها هنا هي التالية: كيف يمكننا أن نفهم أن نيتشه ينوي أن يعطي للحقيقة التي تصورها "امرأة لديها أسباب وجيهة لعدم السماح برؤية أسبابها" بالتحديد اسم باوبو الذي لا يتردد في السماح برؤية جنسه؟ قبل أن نقترح إجابة أولى على هذا السؤال، يجب أن نتذكر أن مقدمة كتاب "ما وراء الخير والشر" ومقدمة الطبعة الثانية من كتاب "العلم المرح" قد كتبتا في عام 1886. في هذه المرحلة من حياته المهنية، أدرك نيتشه أن مهمته الرئيسية هي إكمال مشروعه المتمثل في إعادة تقييم جميع القيم بنجاح. إن تغيير القيم يعني، قبل كل شيء، إزالة الأرض التي نشأت عليها. وهذا يعني أيضًا عكس القيم، أي تقدير كل ما كانت البشرية تخشاه في السابق، وتقليل كل ما كانت تقدسه في السابق. وهي لا تزال

تخلق قيماً منسجمة مع الجسد والحياة والأرض[27]. إذا أخذنا في الاعتبار الجانب الثاني من مشروع إعادة تقييم كل القيم، فإننا قادرون على فهم أن المفهوم الجديد للحقيقة الذي تصوره نيتشه يشير إلى الكشف للبشر عن كل ما كان محظورًا حتى الآن[28]، وهو الكشف الذي يمثله بشكل جيد لفتة باوبو الوقحة.

ولكن لا يمكننا أن نتجاهل أنه في هذه الحلقة، يمكن تفسير لفتة باوبو أيضًا على أنها تحريض على النشاط الجنسي[29]. إنها شخصية تجسد الخصوبة، وتلفت الانتباه إلى أهمية الجسد والحياة والأرض. إذا أخذنا في الاعتبار الجانب الثالث من المشروع النيتشوي، فإننا قادرون أيضًا على فهم أن هذا المفهوم الجديد للحقيقة يشير إلى خلق قيم تنظر إلى الإنسان باعتباره تكوينًا فيزيو-نفسيًا.

وها نحن هنا مرة أخرى على بعد ألف ميل من طريقة تفكير الواقعيين، الذين، أتباع مركزية الإنسان والموضوعية، لا يدركون أن الواقع يتألف فقط من النبضات والعواطف والغرائز. كان باوبو يحدد صورة للمرأة بما يتفق تمامًا مع فلسفة نيتشه نفسها[30]: صورة إيجابية للمرأة. ولكن دعونا لا ننسى امرأة لم تكن موجودة أبدًا.

في حين أنه من الصحيح أن نيتشه حريص على دراسة العديد من تشكيلات الأنوثة، فإنه من الصحيح أيضًا أن هذا لا يمنع ظهور تناقضات جديدة تجاه المرأة في نصوصه. ونحن لا نتردد في التأكيد على أنه إذا لم يمتنع عن انتقاد النساء اللواتي هن بشر، بشريات للغاية، فإنه يصر على التعبير عن تقديره لأولئك اللواتي لا وجود لهن إلا في الخيال

1

الهوامش

1ظهرت نسخة مبكرة للغاية من جزء من هذا الفصل تحت عنوان "من الواقع إلى الحلم: نيتشه وصور المرأة"، في رسائل جايا ساينزا، بيزا، منشورات إي تي إس، 2010، ص. 11. 277-293.

2العلم المرح، KSA 357/، 421.

3المرجع نفسه، KSA 357/، 421.

4علم الأنساب الأخلاقي، III، KSA 5/12، 364.

5العلم المرح، KSA 3346/، 581.

6المرجع نفسه، KSA 357/، 421.

7لاستكشاف هذه القضية بمزيد من التعمق، نشير إلى دراستنا: سكارليت مارتون، "La nuova concezione del mondo": volontà di Potenza، pluralità di forze، "eterno ritorno dell'identico"، في ستيفانو بوسيلاتو (محرر)، نيتشه في البرازيل. المساهمة على بحث معاصر، بيزا، ETS ETS، 2014، ص. 21-40.

8العلم المرح، KSA 3374/، 627.

9المرجع نفسه، KSA 358/، 422.

10نحن لا نريد أن نؤكد أن جميع نصوص نيتشه تقدم صياغة دقيقة؛ ولا نعتقد أن كتاباته المقتضبة تكشف بشكل عام عن بنية محددة جيدًا. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى فرض مبدأ التنظيم الداخلي عليهم من الخارج وحصرهم في إطار منطقي غريب عنهم تماما.

11.في هذا الموضوع، انظر سارة كوفمان، "بوبو، الانحراف اللاهوتي والصنمية"، في نيتشه والمشهد الفلسفي، باريس، Union générale d'éditions، 1979، ص. 263-304؛ جاك دريدا، توتنهام. أساليب نيتشه، المرجع السابق.
المرجع السابق إذا اتفقنا هنا مع موقف كوفمان ودريدا، فإننا لا نعتقد أنه ينبغي أن نجعل نيتشه محاوراً رئيسياً للدراسات النسوية.

12العلم المرح، KSA 359/، 422وما يليه.

1

13المرجع نفسه، KSA 359/، 423.

14المرجع نفسه، KSA 359/، 423.

15انظر على سبيل المثال إنسان، إنساني للغايةI ، KSA 2/16، 37.

16المرجع نفسه، KSA 2146/، 142.انظر أيضًا المرجع نفسه، KSA 2264/، 219، و"إنسان مفرط في إنسانيته"، الجزء الثاني، "آراء وجمل متضاربة"، KSA 2265/، 492.

17العلم المرح، KSA 359/، 423.

18انظر المرجع نفسه، KSA 3344/، 574.

19انظر علم الأنساب الأخلاقي، المجلد الثالث، ص KSA 525/، ص 402.

20انظر الإنسان، الإنسان المفرط 1، KSA 2635/، 635.حول هذا الموضوع، انظر الدراسة المضيئة التي أجرتها سيلين دينات، "إن الاكتشافات الأكثر قيمة هي الطرق": نيتشه، أو البحث عن طريقة بدون منهجية، نيتشه-ستوديان، 39، 2010، ص. 282-308.

21العلم المرح، KSA 3293/، 534.

22العلم المرح، KSA 360/، 424.

23المرجع نفسه، KSA 360/، 424.

24في النص الأصلي، يظهر التعبير الأول باللغة الألمانية، eine Wirkung in die Ferne، والأخير باللغة اللاتينية، eine actio in distans.

25على العكس من ذلك، عند تحليل الفقرة 60 من كتاب "العلم المرح"، تأخذ روزالين ديبروز مفهومي العمل عن بعد و"عاطفة المسافة" كما لو كانا قابلين للتبادل ("عاطفة المسافة"، في كتاب بول باتون [محرر]، نيتشه، النسوية والنظرية السياسية، لندن، روتليدج، 1993، ص 23.(

26العلم المرح، KSA 361/، 425.

27العلم المرح، KSA 362/، 425.

28المرجع نفسه، KSA 368/، 427.

وهذا هو الموقف الذي تدعمه كاثلين ماري هيغينز. فيما يتعلق بالفقرة 68 من كتاب "العلم المرح"، تقول: "يرى نيتشه أن تغيير العلاقات بين الناس من جنسين مختلفين أمر ممكن. في الواقع، هذا التغيير هو بالضبط ما يدعو إليه الحكيم عندما يُصرّ على ضرورة تربية الرجال تربيةً أفضل" ("الجندر في العلم المرح"، في كيلي أوليفر، ومارلين بيرسال [المحرران]، التفسيرات النسوية لفريدريك نيتشه، بنسلفانيا، مطبعة جامعة ولاية بنسلفانيا، 1998، ص 144.(

30تحاول كاثلين ماري هيغينز أن تظهر أن هذه المقاطع تقيم العلاقة بين الرجال والنساء، بطريقة تساهم في النظرية النسوية؛ وبعبارة أخرى، في هذه السلسلة من الفقرات من كتاب "العلم المرح"، يهدف نيتشه إلى قيادة قرائه إلى ثورة جذرية في طريقة تفكيرهم بشأن المرأة (انظر "الجنس في العلم المرح"، المقال المذكور، ص 138-145..(